وحيد النقاش

عطاؤه.. وعطاؤنا

بقلم سامي خشبة

حينما سرنا وراء جثمان وحيد النقاش ، لم يكن من نشيعه وحيدا . كنا معه ، ولم يكن هو وحيدا . احلامنا واشواقنا ورفضنا ومطامحنا الجميلة ، اجزاء عزيزة من ذواتنا كانت معه . ولكن ايضا كان قد ترك معنا ، على قيد الحياة اجمل ما كان قد صنعه وبث فيه روحه وذاته .

احلام لنا تجاسر هو وجعلها تعيش الحياة ، واشواق عبر اليها ووضع عليهاالبدين ..ايديناجميعا،رفض نتهامس بهفحو'ل هوالهمس الى مناضلة للخوف والجوع والغربة والتفرد والانزواء والمنفى ، اشياء جميلة وصور في خيالنا نجهلها ذهب هو وابصرها وعرفها ليستحوذ عليها لنا ، ابوة نخشاها او نتشاكى منها عاشها كما لا يعيشها ، ولا يقدر ان يعيشها واحد منا فحقق اقوالا عاطفية تقل في صيغة المبالغة عن الحرمان من اجل الابناء وعن عطاء الحياة لهم في استمتاع لا يتاتى الا لمن لا يشعر بالخوف ولا تتربص به المقادير المميتة ، تطابق يصل الى حد الامتزاج بين البحث عن المعرفة وبين تقمص المثل الاعلى والحلول فيه : بين اكتشاف هدف الحياة الفردية وبين الايمان بضرورة فهم هذه الحياة في اطار حياة الجماعة والامة والجنس البشري باسره ، والا فقدت حياة الفرد معناها واصبح العدم المرعب مصيرها الذي يحكم عليها باللا معنى والخواء ، قدرة على اكتشاف القصور في الذات وفي الاخرين وفي العالم: صراحة فيمواجهة قصور الذات وبحثعن اكتمالها وحريتها بصرف النظر عن قصور الجسد ، وتسامح انساني مع قصور الآخرين وبحث عن اسبابه اقرب الى بحث الشاعر عن حبيبة مفقودة ، وشجاعة على مواجهة كل ما يتكشف من قصور في العالم وعلى استخدامه الوسائل واتخاذ الموقف الملائم لمثل تلك المواجهة .

هنا احب ان اقف لحظة واحدة .

اذا كان لنا ، نحن اخوة وحيد النقاش ، نحن اصدقاءه وابناء جيله ، ان نتعلم من تجربته التي دفع ثمنها حياته نفسها ، ففي اعتقادي اننا يجب ان نفكر في قدرته على تجاوز ذاته ، على الارتجال عن مواقف لم يعتقد في ابديتها لانها كانت مواقف الحركة نحو الحقيقة والحرية ، وفي التعالي على « فرص » كان يمكن ان لا يلومه احد لو انه نظر اليها على نحو آخر .

مثقفنا المغترب ، الشاعري الوجدان ، العاطفي النظرة ، النأثري المنهج ، هذا الرفيق كطبيف ، الذي يتحاشى « المشاكل » ، والذي يبحث عن التحقق من خلال اكتمال ذاته وحدها بالمعرفة او بالحب او بالاصدقاء او بالسفر ، من كان يظن انه في غربته وفي احتياجه وفي تحمله لمطالب ابنته الوليدة ومتاعب دراسته الشاقة ، وفي باريس نفسها ، يتحول الى مناضل ثوري اثناء حصوله على طفلته بدلا من ان يكتفي بالتفرج على الثورة ، ومن كان يظن ان يتحول من مجرد متذوق للفن ومستمع به ومجاهد لان يمنع الاخرين معه ، الى فنان ومفكر نقدي ، يرى في الفن قدرة على تجاوز الواقع وعلى المساهمة في تغيير وجدان الانسان وعقله وعلى تربية روحه بالعلم والجمال والثورة ؟

وهذا المثقف الخارج من وطن متخلف ، للمتعلمين فيه قيمة كبيرة وللمتخصصين اصحاب « الشهادات » و « الاجازات » الاكاديمية حق الجلوس على قمة المجتمع في كل مجالاته ، من كان يظن ان « فرصته » للحصول على مقعد في قمة المجتمع ، ستكون فرصته للبحث عن طريق لارواح القاعدة المسحوقة كي تخرج الى الشمس وكي تستنشق هواء العدالة والحرية والمعرفة والسلم ؟

●

بعد ان شيعنا وحيد النقاش ، خرجت مع الصديقين ابو المعاطي ابو النجا وصبري حافظ . رنق الصمت فوقنا كصمت البحر حيث لا تكون ريح . وتسللت الكلمات من احدنا على استحياء ، اظنه ابا المعاطي،لنتحدث عنالموت .وعن موت وحيد ،كما من حياته، حصلنا على الاطمئنان : اننا لا نواجه العدم . فان الصديق المفقود ما زال فينا وان رحل عنا جسده . هكذا كان يقول اجدادنا وان ادركنا نحن الحقيقة على نحو اخر . ان اغلى ما انتجه كان حبه لنا وقدرته علىان يستخرج من اعماقنا المجدبة . ربما لم تتح له الحياة القصيرة فرصة لكي تتحول كتاباته الى عنصر قوي التاثير في حياتنا الثقافيةوالفنية. رغم ان عددا من اعماله كان لها مثل هذا التأثير . ولكن من منا لا يحمل في وجدانه او في فكره اثرا منه ؟ من منا لم يحبه او لم يتمن ان يعرفه ؟ من منا لا يتمنى ان يفعل فعله حتى وان كان عليه ان يدفع نفس الثمن ؟ حبه وفكره ، ابداعه الخاص ، هو ما اورثنا اياه . كانا مساويين لذاته . فذاته تحيا في عمله الذي اعطاه للناس .. وفي حبه.

●

بعدها بيومين زارني الصديق سليمان فياض . كانوحيد هو حديثنا لا لانه مات ففرض الحدث نفسه علينا . وانما لاننا كنا نتحدث عن

صداقاتنا في الماضي ، قبل ان تشغلنا الحياة . قلت لعل اروع ما في هذه الصداقات انها كانت هي « ابداعنا » و « عملنا » الذي كنا نمارسه كأنه « العمل » الذي تتحقق فيه ذواتنا لاننا نمارسه ونحن نحبه ونحرص عليه ونريد ان نستزيده جمالاً ووضوحا وصدقا وقوة ، دون فرض من مؤسسة ، او تنافس على منصب ، او ترقب لعلاوة او لمرتب . وقال سليمان : لعل ما جعل وحيد النقاش ، حياته وموته ، علما علينا ورتبة نتمناها وشارة يخبئها كل منا في قلبه،هوانه ترك كل هذا الابداع الجميل الواضح الصادق القوي في قلوبنا جميعا . تركه وان لم يكتبه . نقد ابدعه وجسده في صداقاته وحبه . ابدعه وجسده في معايشتنا . وتركه لنا ثم مضى ليأتينا بزاد جديد . لم يكن بخيلا كذلك الاعرابي الذي كان يكتفي بان ينحر آخر نياقه . كرمه كان بالحب وبالمعرفة وبالجمال وبالصدق . ولذلك فاننا نفتقده منه الان .. غايتنا فقط ، ان نتمكن من تمثله . مأساتنا الآن اننا نكتب عن هذا الابداع في صيغة الماضي . لم نكتب عنه في صيغة الحاضر لاننا كنا نظن ان ابداعه كابداعنا ، فكنا ننتظره ، كأنه واحد منا ، دون ان نذكره الا من المناسبات ، حتى يعود . فلما مات اكتشفنا تميز ابداعه عن ابداعنا . لاننا اكتشفنا مقدار تميز ما اعطاه لنا ، وما اعطاه فداء للمحافظة على براءة ذلك الابداع الاول ، عما اعطيناه او فديناه به .. ان كنا قد فديناه او اعطيناه شيئا .

●

لم يكن غريبا اذن ان يتحول وحيد النقاش من متذوق للفن وللجمال الى مؤمن بقدرة الفن على المساهمة في تغيير واقع الانسان وتحقيق حريته ، من متباعد عن المشاكل الى مناضل فعال من اجل العدالة والحرية والمعرفة والحب للمقهورين ، بسبب ارتباطه هذا القديم والعميق بالناس وباصدقائه ، منذ كان حرص على ان يشاركنا ما اكتشف من معرفة وان يقاسمنا ما نذوقه من جمال حتى لا يتركنا بعيدين عن عالم الحق وعالم الجميل . هذا المتذوق المسالم كان يجب ان يشاركه الناس فى المجتمع وفي باعث السلم . فلما اكتشف سبب حرمانهم منه تحول من متذوق تأثري الى ناقد . وادرك هو ان ناقد الفن ليس مجرد من يقارن بين القيم وانما هو القادر على صياغة واكتشاف القيم الجديدة الانسانية المتطورة وعلى التبشير بها والدفاع عنها . واكتشف ان مثل هذه القيم لا يمكن ان تكون اكتشافا فرديا، فالجموع باكملها تصوغها اثناء العمل ومن خلال صنع الحياة ، كما انها قيم لا يمكن ان تظل احتكار الارستقراطية فكرية مهما كانت نبيلة المشاعر او متعاطفة مع من دونها من البشر . ولهذا استطاع وحيد ان يكشف ان ناقد الفن هو بالدرجة الاولى مفكر نقدي ، يستطيع ان يقبل وان يرفض ، لا لكي يرفع او يخفض ، وانما لكي يفير ولكي يبشر ولكي يساهم في تحرك الفكر والحياة الى الامام ، لمزيد من النور والعدل والحرية .

●

هذا الاحساس العميق بالاحتياج الى قيم الانسان المتكامل ، المتطابق مع جوهر الانسان الحق ، غير المغترب عن هذا الجوهر ، هذا الاحساس الذي جعل من وحيد النقاش مناضلا بالفكر والكلمة والموقف والفعل .. هو ما يجعل من موته راية لابناء جيله المدافعين عن نفس القيم .

ففي مواجهة انهيار العالم القديم ، كان لا بد لابناء هذا الجيل من اكتشاف القيم الجديدة للعالم الجديد ومن صياغتها . وفي مواجهة انخداع الجيل السابق بالشعارات التي برقعت وجه الواقع المتعفن بقناع كذاب كثيف ، كان على هذا الجيل ان يؤكد صدقه مع الواقع ومع التاريخ . وكان صدقه متجسدا في رفض الاكذوبة ، وفي التعلق بحلم الصدق وفي النضال من اجل دفع الواقع الى تجسيد هذا الحلم وتحقيقه . واكتشف وحيد ان مجرد الرفض لا يكفي ، وان مجرد التعلق بالحلم قد يكون مجرد هروب من مواجهة العفن الحقيقي ،وان النضال بالكلمة العاطفية او بالكلمة المنفعلة او بالكلمة الجاهلة قد يكون مساويا للنكوص في ميدان القتال والخيانة . ولذلك كان عليه ان يمد خطوط اكتشافه الى نهايتها المنطقية . كان عليه ان يسلح كلمته وفكره بالمعرفة ، وعمله النقدي بالفكر النقدي : لكي يصبح عارفا بما يرفضه وبما يريد ان يشيده بدلا من العالم المرفوض ، موضوعيا في حكمه على المرفوض وفي حلمه بالعالم المقبل . عرف ان البحث عن المعرفة بالنسبة لجيلنا مساو للموقف النضالي ذاته ، وان المعرفة الفكر النقدي لجيله هي جوهر هذا الفكر ومبرره الوحيد ، فان النضال العلمي لا يمكن ان يكون كذلك دون علم ، ودون منهج علمي ... دون احاطة بمادة الحقيقة وفلسفة تستند الى الاحاطة المادية بالحقيقة . ولذلك كان سفره وكان اصراره على الصمود في مواجهة كل المشاق القاتلة : احتياجه وفاقته ومرضه . فقد كان يعرف ان الحصول على ما يريده مساو لمغامرة المقاتل الثوري في بحثه عن السلاح ليخوض به معركته ويقرر مصيره .

●

انكتفي بان نقول : يرحمه الله ؟!
ايكفي ان نكتب عنه ، وان تكون كتابتنا في صيغة الماضي ؟!

سامي خشبة